دعوة الرسالة

إلى تجديد الدين والأزهر

للأستاذ محمود أبو رية

لما قرأت مقالكم المتع « فقهاء بيزنطة » فى العدد ٣٥٢ من الرسالة ، أعجبنى أيما إعجاب ما وصف قلمكم البليغ من الأمور التى يجادل فيها مشايخنا فشغلوا الناس بها ، وأوقعوا الفرقة بينهم من أجلها ؛ ذلك بأن من يطلع من أهل البصر على أكثر أبحاث شيوخ الدين عندنا ومجادلاتهم ، سواء أكان ذلك فى مجتمعاتهم أم على صفحات مجلاتهم لا يصدق أنهم يعيشون فى هذا العصر ، أو أن الدين الذى ينتسبون له ويناقشون فى مسائله هو الدين الإسلامى الذى جاء به محمد (ص) . ولكنى — ولا أكتمك الحق — قد وقفت عند جعلكم البحث فى أمر تسوية القبور أو إقامتها من هذه المباحث البيزنطية ، لأن هذا الأمر إنما يتصل بأصل الدين الإسلامى وهو (التوحيد) الذى هو أصل رسالة محمد (ص) وقاعدة دينه ، بل هو أول ما يدعو إليه كل رسول بقوله : « اعبدوا الله مالكم من إله غيره » وذلك بأن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره بدعاء ولا بغيره ، وروح التوحيد كما لا يخفى على كل مسلم صحيح الايمان ، هو إخلاص العبادة لله تعالى والاستعانة به والتوكل عليه والنذر له ، وما نكب المسلمون بشىء نكبتهم بالقبور المشرفة والأضرحة العالية فقد أصابتهم من نواح كثيرة فى دينهم ودنياهم . أفسدت عقائدهم فأصبحوا كما قال الله تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ، وأذهبت أموالهم فيما لاخير فيه ولا نفع منه وذلك بما يبذلونه فى إقامة القباب ورفع الأضرحة ؛ وشلت قواهم ، وكبلت هممهم ، وهذه الناحية هى أشد ضرر اجتماعى ضرب فى مفاصل الأمة ، ذلك بأنهم قد تركوا الأسباب التى من كسبهم ودابروا سنن الله فى عملهم ، تلك السنن والأسباب التى أخذت بها الأمم ، فكانت سبب نهوضها ومرقاة سعادتها . ارتكنوا على أصحاب هذه الأضرحة ليقوموا بشؤونهم ويقضوا من حاجهم حتى صرنا فى ساقة الأمم لا حول لنا ولا قوة ، ورحم الله حافظ ابراهيم فى قوله يخاطب الأستاذ الإمام محمد عبده :

إمام الهدى إنى أرى القوم أبدعوا ... لهم بدعاً عنها الشريعة تعزف
رأوا فى قبور الميتين حياتهم ... فقاموا إلى تلك القبور وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم ... على صنم للجاهلية عكف

ويرحمه الله إذ قال :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأموات
للسيد البدوى ملك دخله ... خمسون ألفاً والحظوظ هبات[1]
وأنا أعذب فى الوجود وليس لى ... يا أم دفر ما به أقتات[1]
من لى بحظ النائمين بحفرة ... قامت على أرجائها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها ... بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ... ووسيلة تقضى بها الحاجات

وقفت عند هذا القول فى مقال صاحب الرسالة وعجبت أن يصدر منه وهو جد خبير به وبضرره حتى قرأت مقاله البليغ (العقيدة الساذجة) ، ورأيت فى القول المحكم عن الضريح الذى أنشأه بالعراق السردار ظاهر زين الدين الزعيم الهندى لعلى رضى الله عنه ؛ فوجدت قلمه قد ضرب فى الصميم ومس أصل الداء الذى أصاب بلاد الإسلام جميعاً وقلت : لقد اقترب صاحب الرسالة من العمل الحق للدين — لما لم يجد أهله يعملون له — بعد أن كان أكثر عمله للأدب ، ولا غرو فإن الدين الإسلامى لكما قال هو : « ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب وقيام معجزته على البلاغة » ثم وددت لو أنى قرأت فى هذا المقال أدلة النهى عن إقامة القبور وزخرفتها من لسان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ومن عمل على رضى الله عنه فى مثل هذا الأمر نفسه لا ليشد مقاله بها فإنه شديد متين ولكن ليعرف المتعصبون والقبوريون أن ما تدعو إليه الرسالة إنما هو دعوة محمد (ص) فلا يفتروا الكذب بأنه رأى مفتجر لا يؤيده دليل ولا يظاهره نص . كنت أود أن يقرأ الناس فى هذا المقال الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم عن أبى الهياج الأسدى قال :

(١) البيتان الثانى والثالث لم يذكرا بديوان حافظ ، فنرجو من كل من عنده نسخة من هذا الديوان أن يزيدها على هذه الأبيات لأنهما من نظم الشاعر

قال لى علىّ: ألا أبعثك على ما بعثنى على رسول الله (ص)؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته — وفى رواية ألا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)

وقد ذكر الإمام الشافعى فى الأم ونقله عنه النووى فى شرح مسلم أنه رأى الأئمة بمكة يهدمون ما شيّد من القبور ويسوونها بالأرض عملاً بهذا الحديث، والحديث الآخر الذى رواه مسلم عن جندب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول:

« ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك »

وما أخرج مالك فى الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد

نعم. وددت ذلك وتمنيت لو أن صاحب «الرسالة» قد نهض كذلك، وهو ذو القول البليغ المسموع والرأى الموفق المقبول فواصل الكتابة فى هذا الأمر، حتى جاء العدد ٣٥٥، ورأيت صدره قد تحلى بمقاله « فى سبيل الأزهر الجديد »، حينئذ طابت نفسى وانشرح صدرى وقلت: لقد وضعنا أيدينا على مفتاح الإصلاح، لأن هذا المقال، إنما هو الصيحة المباركة لا فى سبيل تجديد الأزهر فحسب، ولكن فى سبيل تجديد الدين.

لقد ضرب قلمكم البليغ فى صميم الإصلاح الدينى فقال: إن إصلاح الأزهر من ناحية الدين إنما هو فى العودة إلى استنباط الدين من منابعه الأولى « من صريح الكتاب وصحيح السنة »

إن الدعوة التى تقوم بها الرسالة اليوم هى التى اتبعها خير القرون واستمسك بها من بعدهم العلماء المحققون أمثال ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما. وهى التى وضع بذرتها فى العصر الحديث جمال الدين وأنبتها الإمام محمد عبده، وقام على تربتها السيد رشيد رضا حوالى أربعين سنة والتى أفصح عنها بكلمة حكيمة يجب أن تكون أساس كل إصلاح دينى فى هذا العصر وهى:

« أقول فى الدين بقاعدة الإمام مالك وهى الوقوف فى العقائد والعبادات عند نصوص القرآن، وبيان السنة النبوية له، وسيرة السلف الصالح فيه قبل حدوث الآراء والبدع ومراعاة مصالح الأمة العامة فى الأحكام الدنيوية من مدنية وسياسية وغيرها؛ وأما ما فوضه الشارع إلى الناس من أمور دنياهم ووكله إلى علمهم وتجاربهم فى قوله صلى الله عليه وسلم: « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وقوله (ص): « إنما أنا بشر مثلكم إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » رواهما مسلم فى صحيحه

أما هذا فأما أدعو فيه إلى أحدث ما انتهت إليه علوم البشر وفنونها وإلى ما لا يعرف له حد من الزيادة عليها بقصد إعزاز الأمة وإعلاء شأن الملة بها، ولا بد فيه من المحافظة على مقومات الأمة ومشخصاتها التى كانت بها أمة فى وسائلها ومقاصدها)

هذا هو منهج الإصلاح الدينى الذى بينه أفصح بيان السيد رشيد رضوان الله عليه

فسر ياصاحب الرسالة بتوفيق الله فى هذا الطريق حتى يتجدد الدين ويبلغ مكانته اللائقة فى هذا العصر وفى غيره، وبذلك تكون الرسالة قد نهضت بخير عمل ثوابه عند الله كبير، ونفعه للناس عظيم

(المنصورة) محمود أبو ريه

الفصول والغايات

فى تمجيد الله والمواعظ

وهو معجزة أبى العلاء المعرى فى النثر

لم يبق منه إلا نسخ محدودة

فاطلب نسختك قبل نفادها

يباع فى ادارة الرسالة وثمنه ٣٠

فى عيد الفسيخ

أرجو ألا يحمل القارئ تسميتى هذه على المزاح ، فلست لعمر الحق مازحاً ، وما أستطيع أن أسمى الأشياء بغير أسمائها حتى فى هذا الزمن الذى يسمى كل شىء فيه بغير اسمه

وإنما تسمى الأعياد بأبرز خصائصها . على هذا النحو كان عيد الأضحى ، وعيد الفطر ، وعيد الميلاد . وليس فى القراء من يستطيع أن يجادلنى فى أن الفسيخ قد أصبح أبرز خصائص ذلك اليوم الذى نسميه شم النسيم ؛ فليت شعرى وهذا هو شأن الفسيخ فيه لم لا نسميه عيد الفسيخ ، وقد تلاشى فى جمال الفسيخ كل جمال ؟

الأصل فى هذا اليوم أنه عيد الربيع ، عيد الورد ، عيد النسيم الذى ينفح بالعطر ويزخر بالجمال ، ولست أشك فى أصله ؛ ولكنى لست أدرى ماذا جعل الفسيخ فيه يطغى على الزهر ؟ ولعمرى ما أرى أى رابطة بين هذا وذاك ، وليس من ينازعنى حتى المولعين بالفسيخ أنفسهم أن هذا شىء وذاك شىء آخر أبعد ما يكون عنه عنصراً ومعنى ؛ وإن كان فى الناس من يقول : « يخلق من الفسيخ شربات »

درت بمنظارى فخار المنظار أو حارت عينى من وراء المنظار ، ماذا تسجل وماذا تدع ؟ أأستطيع أن أمر ، دون أن أضحك ، بهؤلاء الذين جلسوا للطعام على بُسُط الربيع ، فما كان أمام الكثرة المطلقة منهم إلا هذا الصنف من الطعام الذى يجب أن يكون آخر ما يؤكل خارج المنازل ، إن جاز أن يؤكل فى أى مكان قط ؟ وكان يبعث ضحكى من هؤلاء أنهم يمانون رهقاً شديداً فى تناوله ، ومع ذلك فهم يقبلون عليه فى شراهة جعلتنى أعتقد أن اسم الجمال عندهم فى هذا اليوم هو فى ذلك « المسلخ » وذلك « النقش » وما يصحبهما من تلويث الأيدى والملابس فضلاً عن تلويث الجو كله برائحة احتبست منها أنفاس الزهر ! دع عنك مخلفاته النتنة التى تزيد بتناثرها هنا وهناك هاتيك البساتين جمالاً على جمال !

وما كان هذا المنظر وحده هو الذى انقبضت له نفسى ، فلقد كان ما رأيت فى النهار كله دليلاً لا يكذب على أن الناس ما خرجوا من دورهم لاجتلاء جمال الربيع والاستمتاع بصفاء الربيع ، وإنما جاءوا ليشوهوا جمال الربيع عامدين بكل ما فى وسعهم من أسباب التشويه

على أى وضع من أوضاع الذوق والجمال يعتبر منظر هؤلاء « الأفندية » الذين تحلقوا على الحشائش فما خفت لهم صوت منذ جلسوا ، وما جرت ألسنتهم إلا بكل عوراء مخزية من النكات والحكايات ؟ حتى لبث رؤوسهم بنت زجاجاتهم فازدادوا نكراً وحمقة وعلى جوانبهم أسر فيها أوانس وسيدات ؟

وعلى أى وضع من أوضاع الذوق والجمال يعتبر منظر هؤلاء الشباب المتعلمين الذين يأخذون السبيل على كل غادية ورائحة ، ولا يتنادون إلا بأشنع السباب وأوقح الأسماء والذين لا يطربهم أكثر من عبارات السب توجه إليهم ممن ينازلن « ويعاكسن » ؟

ثم ما هذه « الشلل البلدى » الذين اصطحبوا من اصطحبوا ممن كن وإياهم على موعد فى هذا اليوم الجميل فجاءوا وجئن يضيقون إلى معانى جماله هذا المنظر المخزى البغيض ؟

بل ما هذا الأفندى الوجيه الذى خلع سترته وألقى بطربوشه ووقف يرقص فى حركات بهلوانية وحوله من يصفق له ممن يعرفونه ومن لا يعرفونه ، وهو لا يزداد على التصفيق إلا جنوناً وانتشاء ، ثم هو لا يفتأ يعاود حركاته كلما استخفه التصفيق ممن أولعوا باستخفافه ؟ وما هؤلاء الشحاذون الذين انتشروا هنا وهناك ، فكانوا أثقل على الهادئين من المهرجين ومن الذباب ومن رائحة الفسيخ ؟ ما هذا الضجيج ، وما هذه الفوضى التى تلاشى فيها جمال الربيع وصفو الربيع واستحذى لها وجه الربيع ، حتى لو استطاع ربيعنا لبحث له عن أرض غير هذه الأرض ، وناس غير هؤلاء الناس !

رأيت هذا ، فذكرت يوم شم النسيم فى القرية ، وطاف برأسى عذارى الريف يسبقن الفجر زرافات إلى الترع فيستحممن ويملأن جرارهن ويغطينها بالريحان والنوار ، ويعدن مغنيات ضاحكات تنفحهن أنفاس الفجر الندية الرخية ، وترمقهن باحتشام عيون الشبان فى طريقهم إلى شجر التوت وفى أيديهم الريحان والسمد والقمناع والورد ، فلا يكون بين هؤلاء وأولئك إلا الابتسامة الحلوة أو التحية العفة ، ويكون نهارهم ونهارهن فيضاً من الجمال والهدوء والانبساط ، ومما شاءوا وشئن من هوى عذرى تبقى ذكراه وذكرى المسرة فى نهاره سحر العام كله

« عين »